الفصل الأول

هويــة الغــرب

إن أروع القـضـايا التي تواجـه كل غـربي اليـوم، وأخطرها شـأناً، وأصعبها ليست قضية البقاء الاقتصادي، ولكنها قضية الهوية: «من أنا؟» والتناقض هنا كائن في أننا نسـأل السؤال بوصفنا أفـراداً، ومع ذلك، فنحن لا نستطيع أن نحدد وجودنا، ومعنى وجودنا إلا وراء دورنا بوصفنا أفراداً، وإلا بالإشارة فقط إلى مجموعة أو مجموعات، وهذا طبعاً هو الاستبصار العظيم الذي جاء به الفيلسوف الألماني عمانويل كـانط (1804 - 1724) وهو أن جـوهرنا الفـردي يُخـبَـر في الأصل في عـلاقـات مع أفـراد آخـرين، ومع العـالم من حـولنا، في حين أننا في الوقت نفسـه نحتفظ بهوية هذا الجوهر الأساسية والفريدة، فليس هناك إجابة واضحة أو صحيحة عن سؤال: «من أنا؟»، ومع ذلك، فإن الكيفية التي يقرر بها الغربيون عموماً الإجابة عن السؤال سوف تؤثر تأثيراً عميقاً على مستقبل الغرب.

نحن حيوانات اجتماعية، ونحن نحتاج إلى الإحساس بالهوية، وكلما صار المجتمع أكثر لا مركزية، وكلما صار كل واحد منا أكثر فردية، صار الإحساس بالهوية أكثر أهمية، فإنه قرارنا الفـردي، وهو ليس قراراً أوجبه علينا المجتمع ووصفه لنا، وتقوية شدة الفردية لا تزيل أو تخفف الحاجة إلى الهوية الجماعية، إنها تجعلها في آن واحد أكثر

تفلتاً من الإدراك بالفكر، وآمراً لا مفر منه من الناحية النفسية، وأكثر حيوية للمجتمع، وليس ذلك فقط، بل إن النتيجة النهاية مفتوحة، وغير قابلة للتنبؤ بها إلى درجة عالية.

ولرؤية قوة الهوية، انظر إلى ما حدث في أوروبة في القرن الماضي، ففي العام 1900، لم يكن أبرز إحساس مفرد بالهوية بالنسبة إلى معظم الأوروبيين هو الطبقة، أو العرق، أو الوظيفة، أو الدين، أو العقيدة السياسية، وكل هذه المصادر للهوية كانت مهمة للكثيرين، وللمجتمع الأوروبي بصفة إجمالية، ولكن أقوى مصدر مفرد للهوية كان قومياً، ومن دون ذلك الإحساس الكاسح بالهوية القومية، الذي شجعه ودعمه طوال القرن التاسع عشر المحافظون والليبراليون على حد سواء في كل أنحاء أوروبة، ما كانت الحرب المرعبة قد اندلعت في 1918 - 1914، بل لو اندلعت، لما سمح لها أن تستمر إلى أكثر من الأشهر القليلة الأولى.

لقد كان يعتقد على وجه العموم في منطلق تلك الحرب أنها «ستكون قد انتهت مع حلول عيد الميلاد»، في غضون أربعة أشهر من البداية، ومع ذلك، فمع حلول عيد الميلاد في العام 1914، كان من الواضح لرجال الدولة من كل الأطراف أن الحرب كانت كارثة مفاجئة لجميع المقاتلين، من النواحي العسكرية، والاقتصادية، وفوق كل ذلك بالنسبة إلى النفوس الإنسانية التي تزهق وتعاني، ومع ذلك كان الكبرياء في الهوية القومية متجذراً في كل أنحاء أوروبة تجذراً أعمق من أن يوقف الحرب، إلى أن استطاع جانب في نهاية المطاف أن يضرب الجانب

الآخر ويكرهه على الاستسلام المنهَك، فقد قُتل ثمانية ملايين ونصف المليون من الأوروبيين، وانهارت إمبراطوريات أوروبة الاستعمارية، وفُقد موقعها البارز في العالم على نحو لا عودة عنه، وقامت الثورة الروسية في العام 1917، نتيجة مباشرة للحرب، وكانت مع حلول العام 1953 قد أدت إلى ما يقارب 54 مليوناً من الوفيات التي نجمت عن الحرب الأهلية، والرعب، ومعسكرات الاعتقال والعمل (الغولاغ) وأحكام الإعدام السياسي، ومن دون حرب 1918 - 1914، ما كنا على وجه اليقين تقريباً قد وقعنا في بربريات ألمانيا النازية، أو الحرب العالمية الثانية، وهما الحدثان اللذان أديا فيما بينهما إلى ما يقارب 47 مليون قتيل ووفاة آخرين[1] ، وتدمير الحضارة الغربية تقريباً.

بعد العام 1945، استمرت القومية في إحداث ضرر ضخم للعالم، ولكنه وقع بالدرجة الرئيسة خارج أوروبة الغربية، وبرعاية أمريكية، وقد محا إنشاء «السوق المشتركة» ثم الاتحاد الأوروبي لاحقاً القومية الخبيثة، وصاغ إحساساً من المصلحة والهوية المشتركتين بين الأمم الأوروبية، وتوقفوا عن غزو أحدهم للآخر، واشتركوا في حلف عسكري غربي، وتبع ذلك ستون عاماً من السلام الذي لم ينقطع، ومن الازدهار في أوروبة الغربية.

(1) التقديرات المتوسطة هي وفاة 14.4 من الملايين من العسكريين و 27.1 من الملايين من المدنيين في الحرب العالمية الثانية ووفاة 5.6 من الملايين في الإبادة العرقية من اليهود على أيدي النازيين، وهذه التقديرات مبنية على ما كتبه نورمان ديفيز (1996) في أوروبة: تاريخ، مطبعة جامعة أوكسفورد، أوكسفورد ص ص 9 - 1328.

ومع ذلك، فإن مِشكال (كليدوسكوب) الهوية الغربية يتحول في طرق مختلفة لا حصر لها متنازعة ومعاصرة، ولقد صارت الهوية مشخصنة، وصارت موضعية، كما في «قومية» الباسك أو قطلونيا، وصارت مجنسنة للذكر والأنثى، في حركات تحرير النساء واللوطيين والسحاقيات، وصارت رياضية، في ولاء المعجبين العنيف ـ وفي كل الأحوال دائماً معجبون محليون ـ لفرق محددة لكرة القدم، أو لكرة القاعدة، أو لكرة السلة، وصارت بيئية، كما في السلام الأخضر، وأصدقاء الأرض وجماعات أخرى منهمكة في عمل سلمي، أو أقل ميلاً للسلم في كل أنحاء العالم، وصارت محررة للحيوانات، وصارت إرهابية، وصارت دينية، في اتّباع الكنائس والنظم الدينية المحلية أو الدولية، وصارت افتراضية، في انتشار «مجتمعات» على الخط المباشر، وصارت عرقية، كما في «إفريقي ـ أمريكي»، وصارت أحياناً مستندة إلى اللغة، كما هي، حين تنفخ الهوية الهيسبانية أبواق القومية، إذ يقال: إن ميامي هي «عاصمة أمريكا اللاتينية».

وصارت في حب الخير للإنسانية، في بذل المعروف من أجل قضايا مختلفة لا حصر لها أو العمل من أجل هذه القضايا، وصارت سياسية عبر الحدود المحلية والوطنية، كما في حركة مناوأة العولمة والحركات الأخرى المهتمة بقضية مفردة بعينها، وصارت الهوية تنظيمية، كما في التماهي مع رب عمل الشخص والتحرك حول العالم من أجل شركة شل أو آي بي إم، وصارت عابرة للقومية، في الوقت الذي يسافر فيه أناس أكثر فأكثر، ويعملون ويقيمون الصداقات مع

أصدقاء في بلاد أجنبية، أو يشترون الممتلكات هناك، وصارت دولية (كوزموبوليتانية)، وصارت ذات علاقة بالموضة، وذات علاقة بالعمر، وذات علاقة بالمدرسة، وذات علاقة بالمشاهير، وبالنسبة إلى الكثيرين، تستمر الهوية بالاستقرار في المصادر التقليدية، ومن جملتها الأسرة، والنوادي، والجمعيات، والمهنة، والولاء لحزب سياسي، ولطبقة، ولعرق، ولأمة.

لقد صارت الهوية باختصار، متعددة، متشظية، لا مركزية، عابرة، وخاصية غريبة، وهويتنا نرتقها معاً من أنفسنا نحن بوصفنا أفراداً، ولكن على مدى العقود القليلة القادمة، يحتمل أن يختار الغربيون اختياراً جماعياً واحداً من أشكال الهوية المهيمنة الآتية:

- تراجع إلى العديد من الأشكال المحلية المحضة والأشكال الشخصية المحضة من الهوية، من دون أي إحساس سائد أوسع من المجتمع.
- إحساس من الهوية المحلية والشخصية، مقرون مع إحياء الهوية القومية، مثل الأمريكيين، والألمان، والأستراليين، وهكذا.
- كما في أعلاه، ما عدا أن «الأوروبيين» يماهون أنفسهم بشكل رئيس على تلك الصفة الأوروبية، أكثر مما يماهون أنفسهم بحسب قومياتهم الجزئية، ونتيجة لذلك، فإن الهوية الغربية تتشعب بشكل رئيس إلى ولائي «أميركيين» و «أوروبيين.»
- إحساس من الهوية المحلية والشخصية، مقروناً مع رأي يرى أننا كلنا دوليون «كوزموبوليتانيون»، مواطنون للعالم.

- إحساس من الهوية المحلية، والشخصية، والقومية، مع إدراك عام بأننا مواطنو الغرب بهوية ومصالح مشتركة مهمة.

هل ستصير الهوية الغربية خليطاً بلا معنى، مشخصناً؟ وهل القومية في الغرب قد بدأت ترفع رأسها البغيض مرة ثانية؟ وهل ستحدد أمريكا وأوروبة خلافاتهما وتقيمانها؟ وهل يجب علينا أن نسعى إلى اسم عام لهوية «العالم»؟ وهل تستطيع مثل هذه الفكرة أن يكون لها أي معنى حقيقي؟ أو هل الهوية الغربية تمتلك حقاً رنيناً للمستقبل؟

ونحن نعتقد، أن أي نتيجة عدا الأخيرة، سوف تجعل من غير المحتمل للغربيين أن يتابعوا الاستمتاع بالسلام، والازدهار والمجتمع المتمدن تمدناً عريضاً. إن تيارات الهوية المعاصرة تتحرك كالدوامة وتتموج، وتستطيع بسهولة أن تغمر حياة الغرب المحرّزة من المكاره تحت الماء، ونحن نستطيع أن نرى كلاً من الخطر والفرصة بمساعدة رسم الكيفية التي حصلت بها «أفكار» أوروبة، وأمريكا، والغرب، وإلى أي مدى تبقى هذه الأفكار قابلة للحياة في عصر التقط ـ واخلط ـ لنفسك هوية.

فكرة أوروبة

هل أوروبة موجودة؟ حتى الخمسينيات من 1950 تماماً، كان يمكن طرد أوروبة بوصفها مجرد تعبير جغرافي غامض متحول، ومع ذلك، ففي حدود المدى الذي وجدت فيه أوروبة بوصفها قوة مخضِعة في

التاريخ، فإنها وجدت بوصفها فكرة، وهي واحدة من أكثر الأفكار خيالية وإثماراً في كل الأوقات [1].

لقد برزت فكرة أوروبة من فكرة عظيمة أسبق منها ـ وهي فكرة العالم المسيحي، وحين انهارت الإمبراطورية الرومانية، فإن كل ما كان يوحد أولئك الذين كانوا تحت سيطرتها هو المسيحية ـ أي أن كل أراضيها وشعوبها، مهما تكن حالات المد والجزر في القوة السياسية، كانت موحدة عقلياً، وتتمتع بحضارة مشتركة، وكان تراث المسيحية يُستكمل بثقافة فكرية غنية، وتوحده اللغة المشتركة، وهي اللاتينية، ويشترك بالتصورات نفسها، والكتب، والمؤسسات المتشابهة على نحو ملحوظ ـ الكاتدرائيات، والصوامع، وأديرة الراهبات، ومدارس الكاتدرائيات، والجامعات ـ عبر البلاد في كل أنحاء القارة، وامتدت ثقافة العالم المسيحي إلى ما وراء المسيحية نفسها على نحو لا يستهان به متضمنة تأثيرات هيللينية (الإغريق القدماء)، ورومانية، وإسلامية، وفارسية، وصينية.

كانت النتيجة النهائية مجالاً فكرياً مثمراً ومبدعاً على نحو فريد، وأدى إلى أول علم تجريبي في العالم، وإلى أعمال فذة في التقانة والاستكشاف لا نظير لها، وإلى استعمار القارات «الجديدة»، وإلى قهر الجوع والموت المبكر في نهاية المطاف، ولقد قدم العالم المسيحي إحساساً بالولاء المشترك والهوية المستقلة عن الأحداث السياسية،

(1) انظر بيتر واطسون (2005) أفكار: تاريخ الأفكار من النار إلى فرويد، ويدينفيلد ونيكلسون، لندن، ص ص. 38 - 319.

متجاوزاً بذلك كل المصادر الأخرى للهوية، سواء أكانت محلية، أم قبلية، أم عرقية، أم قومية، أم سياسية، أم دينية كذلك، وهو ما يدعو للمفارقة الساخرة، والعالم المسيحي لم يتوقف عن الوجود بوصفه فكرة قوية حتى حين انفصلت الكنيسة الشرقية عن الرومانية، وحين غادرت الجيوش فجأة في تمارين الاستيلاء على الأرض وسموها "الحروب الصليبية"، وحين كان هناك ثلاثة باباوات يتصارعون في وقت واحد، وحين غمست أوروبة نفسها في حمام الحروب الدينية الدموية.

وفي عملية بطيئة مؤلمة بين العام 1300 والعام 1800، تطورت فكرة العالم المسيحي بالتدريج إلى فكرة أوروبة، التي شملت دائماً تقريباً أوروبة الشرقية، وبعد العام 1300، بدأ الجغرافيون بعمل إشارات متكررة إلى «أوروبة»، وفي العام 1458، نشر البابا بيوس الثاني رسالة عن دولة أوروبة[1]، وفي أواخر القرن السابع عشر حل لفظ «أوروبة» محل «العالم المسيحي» أو «الكومنولث المسيحي» بوصفه اللفظ السائد، ومع حلول القرن الثامن عشر، كان الثناء على أوروبة هو الصحيح في دوائر التنوير الصحيح سياسياً، وصارت فكرة أوروبة مرتبطة مع العديد من القضايا التقدمية، ومن بينها التسامح الديني ـ وهو تقدم ضخم بالنسبة إلى حضارة كانت قد حرقت حديثاً، وبضمير مرتاح عشرات آلاف الساحرات ـ ومنها الليبرالية السياسية، وتخفيف العقوبات القاسية والقومية العدوانية، والسلام الشامل، وتقدم التجارة والصناعة، والتوحيد السياسي لأوروبة، في بعض الدوائر، والهجمات على الدين المستقر.

(1) دينيس هيي (1957) أوروبة: ظهور فكرة، مطبعة جامعة أدنبرة، أدنبرة.

كان وليام بن (1718 - 1644) هو أول من دعا إلى قيام برلمان أوروبي، وفي العام 1751، سمّى فولتير أوروبة «نوعاً من الجمهورية الكبيرة المقسمة إلى دول عديدة... ولكنها تتوافق بعضها مع بعض... وكلهم يملكون الأساس الديني نفسه...» و«مبادئ القانون العام والسياسة نفسها، وهي غير معروفة في أجزاء أخرى من العالم»، «وليس هناك الآن فرنسيون، أو ألمان، أو إسبان، أو إنجليز»، مثلما غامر روسو بالقول قولاً متفائلاً نوعاً ما في العام 1771، «ولكن أوروبيون فقط»[1].

ووصلت فكرة أوروبة إلى أن تصف لا الواقع الجغرافي، ولكن رؤية شاملة ـ وهي رؤية مجتمع متمدن، متسامح، مسالم، وهو في الوقت نفسه متنوع وموحد، ومتجاوز للقومية وللسياسات، ومؤسس على المعرفة العلمية والتقدمات الثقافية، وهو صديق للفنون، وللعلوم، وللتجارة، وللتقدم في الكرامة الإنسانية، والحرية والسعادة.

في أثناء السنوات الستين الماضية، وجدت هذه الفكرة المؤدبة الدمثة لأوروبة تعبيراً عنها في سلسلة من الترتيبات الاقتصادية والسياسية، وتطور التعاون في مجال الفحم والفولاذ إلى سوق مشتركة، وتطور بعدئذ إلى الاتحاد الأوروبي، وهو انغماس من دول أمم فخورة في مسعى تعاوني أوروبي مصمم لصون السلام، ولتعزيز

(1) في غضون ثلاثة عقود من هذه الملاحظة المتسمة بالرؤية، كانت القوى الأوروبية منغمسة في صراع حياة وموت لمنع نابليون من توحيد أوروبة تحت سيطرة فرنسا.

obeikandl.com

الازدهار، ولمعالجة بعض قضايا العالم الكبيرة في التجارة، والبيئة، وتطور التعاون الدولي.

فكرة أمريكا.

أمريكا فريدة في نواح عديدة، ولكن أهم ناحية في هذه الفرادة هي أن الذين استوطنوا أمريكا كانوا منشقين يناضلون من أجل فكرة يتابعونها، ولقد كان المستوطنون من بروتستانت القرن السابع عشر والثامن عشر[1]، وكانت فكرتهم هي المجتمع المتجانس المتطهر من المواطنين المستقلين ـ يخافون الله، ويعملون بجد، ويحسّنون أنفسهم، وجاء المستوطنون، وقد تسلحوا بالثقافة الأنجلو ـ بروتستانتية (والبريطانية جوهرياً)، وبالقيم وبالخبرة الفنية، واشتركوا في قسم كبير من الافتراضات الفكرية للتنوير الأوروبي الموصوفة أعلاه، باستثناء ارتيابه الديني فقط وتسامحه، إلى حد ما[2].

(1) كان السكان النشيطون سياسياً من الولايات المتحدة في العام 1790 بنسبة 100 بالمائة من البيض، و98 بالمائة بروتستانت و 80 بالمائة بريطانيون (والبقية كلهم تقريباً من الألمان أو من الهولنديين) .

(2) سيكون من عدم التوافق الزمني أن نزعم أن شخصيات التنوير، مثل فولتير، أو ديدرو، أو روسو كانت قد آمنت بمجتمع متعدد الأعراق، ولكن هؤلاء الثلاثة شدّدوا على المساواة الجوهرية للإنسانية، بغض النظر عن الدين، أو العرق، أو القومية، وقد امتلك الأوروبيون ميزة قارة كانت خالية حرة من الرقيق والهجرة الضخمة طوال مئات من السنين، أما الأمريكيون، فقد كانت لديهم لعنة الرقيق، والشكر للتجار الأوروبيين والأفارقة، وفي العام 1790، كان 15 بالمائة من السكان الأمريكيين من الأرقاء السود.

لقد تشكلت الهوية الأمريكية بفعل ثورتين سياسيتين عظيمتين، وهما: الثورة الأمريكية والحرب الأهلية، فحتى الخمسينيات من 1750، تماهى المستوطنون وأحفادهم بشكل رئيس مع مستوطنات الولاية ـ ماساتشوسيتس، أو نيويورك، أو بنسلفانيا، أو فيرجينيا ـ ووراء ذلك تماهوا مع «أمريكا الشمالية البريطانية» ومع الأراضي التي جاؤوا منها، ومع الأحداث التي أدت إلى الحرب وإعلان الاستقلال، وقد بدأت الهوية القومية الأمريكية تظهر، وهي مرتبطة ارتباطاً ثقيلاً مع المعتقد السياسي الذي يعلن المساواة وفردية الأمريكيين الأحرار، وعلى الرغم من ذلك، فقد بقيت ولاءات الولاية هي أبرز الولاءات، حتى الحرب الأهلية تماماً، وبعد هذه الكارثة من الستينيات من1860 إلى الخمسينيات من 1950، صارت الهوية القومية الأمريكية فائقة الأهمية بالنسبة إلى معظم الأمريكيين، وكانت، وهي تعكس جذورها في نزاعين سياسيين صادمين، شكلاً «سياسيا» جداً من القومية، ينبض بالعاطفة نحو «الطريقة الأمريكية»، وهي مجموعة من المعتقدات وصلت إلى أن تكون طبيعة ثانية لمعظم الأمريكيين الأحرار.

ما كانت تلك المعتقدات؟ لقد كانت مؤسسة على الأفكار السياسية الجذرية (الراديكالية) لأوروبة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، وعلى التطهيرية (البيوريتانية)، وفي العام 1944 حدد العالم السياسي غونار ميدرال «العقيدة الأمريكية»: بوصفها مكونة من «الكرامة الجوهرية للفرد الإنساني، ومن المساواة الأساسية لكل الرجال، ومن حقوق معينة في الحرية غير قابلة للنزع والتصرف بها،

والعدالة، والفرصة المتساوية». ولكن الحقيقة الواقعة لم تتوافق دائماً وترتقِ إلى المثل العليا، طبعاً، ولكن القيم الأساسية التي بنت أمريكا هي التي ترن، مثل جرس الحرية نفسه، رنيناً عالياً وواضحاً.

فكرة الغرب

إن فكرة الغرب ليست أكثر، ولا هي أقل، من فكرة أمريكا ممتزجة مع فكرة أوروبة، وفكرة أوروبة هي فكرة مجتمع متمدن، سلمي، مزدهر مكون من أمم متنوعة موحدة بجغرافية مشتركة وبأفكار مشتركة، وفكرة أمريكا هي توحيد المستوطنين الأوروبيين، وبالدرجة الرئيسة المهاجرين الأوروبيين، والآن أيضاً الناس الذين ينحدرون من أصل هسباني، وذلك من خلال الالتزام المشترك بالمثل العليا السياسية، من الحرية، والمكانة والفرصة المتساويتين، وفكرة الغرب هي القضية المشتركة لأمريكا ولأوروبة لمساعدة إحداهما الأخرى وللدفاع عن الحرية والكرامة الإنسانية.

وإذا كانت «فكرة الغرب» هذه تستثير رد فعل حائر أو مرتاب من طرف العديدين من الغربيين وغير الغربيين على حد سواء، فليس هذا الرد بسبب أن «فكرة الغرب» تفتقر إلى الثبوت من الناحية التاريخية أو إلى الجاذبية، بل بسبب أن بعض الأمريكيين وبعض الأوروبيين قد خانوا الأفكار والمثل العليا التي جعلت الحضارة الغربية جذابة وناجحة بمثل هذا الحال وانجرفوا بعيداً عن هذه الأفكار والمثل، وما كان يمكن أن يكون هناك أي اضطراب أو ارتياب حول

فكرة الغرب في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، ومنذ ذلك الوقت كسب الغرب كسباً هائلاً في الوحدة الاقتصادية، والازدهار والقوة العسكرية، ولكنه تدهور بشكل ملحوظ في التماسك الاجتماعي، والقوة الأخلاقية، واليقين في الهدف والتساند المشترك المتبادل والتعاطف بين أمريكا وأوروبة، وبلغ ذلك التدهور إلى النقطة التي تحتاج عندها «فكرة الغرب» إلى أن يعاد تحديدها وإعادة التشديد عليها، أو أن تخلّى إلى الأبد.

لقد غير اكتشاف أمريكا مسار التاريخ وأغنى الأوروبيين غنى ضخماً اقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً وفكرياً في المدى القصير، والمتوسط، والطويل، وإن اكتشاف العالم الجديد أعطى تعزيزاً ضخماً لأوروبة، ووفر الفضة للتجارة مع الشرق، ووفر حدوداً جديدة للزراعة وللصناعة، وللنمو في مستويات المعيشة التي تدفقت من الإنتاج الكبير من أجل سوق توسع توسعاً ضخماً، ولقد قدمت أمريكا حياة جديدة لعشرات الملايين من الأوروبيين، ومن جملتهم الكثيرون الذين كانوا قد اضطهدوا، أو كانوا يائسين من شدة الحاجة، أو معدمين، وطوال أربعة قرون، زودت أمريكا المجتمعات الأوروبية بصمام الأمان، وطوال قرنين وفرت نموذجاً جديداً من الحرية انتصر في نهاية الأمر في كل أنحاء أوروبة، وكانت القوة المحورية الدافعة للتاريخ قُدماً في خمس مئة سنة سبقت هي المصالح المشتركة والعبقرية المتكاملة للأمريكيين والأوروبيين.

والأساس الفكري للأفكار متطابق، وهو المسيحية، والتفاؤل، والعلم، والنمو، والليبرالية، والفردية، ومع ذلك، فإن فكرة أوروبة وفكرة أمريكا تشتركان في شيء هو أقوى كذلك من مجمّع معقّد من الأفكار المتشابكة، ففكرة أوروبة وفكرة أمريكا كلتاهما تتضمن التزاماً جماعياً عاطفياً نحو مجتمع واسع عريض، ونحو جذور جغرافية وتاريخية، ونحو مثل أعلى متطور، والأفكار والمثل العليا مشتركة، والتاريخ والشعوب تتطابق، والجغرافيات فقط هي المختلفة، وإن فكرة الغرب تشتمل على كل الأفكار، وعلى كل المثل العليا، وعلى كل التاريخ، وعلى القارتين كلتيهما، ومعهما المستوطنون الأوروبيون الآخرون في أسترالآسيا.

فكرة الغرب ليست جديدة، على الرغم من أنها لم تكتسب قوة الجرّ السياسي المقنع إلاّ في القرن العشرين، وكان ذلك في الغالب تحت ظروف سيئة الحظ، ومن البداية، مزج «الغرب» مضامين سياسية وثقافية، واستخدم التعبير لأول مرة في الأزمنة الحديثة من الأمريكيين المحبين للإنجليز؛ ليؤكدوا اللغة المشتركة، والحضارة المشتركة والمصالح المشتركة للولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، حين كان الاقتصادان متداخلين تداخلاً عميقاً، وكانت الحرب مهمة في تقوية الروابط، وإعادة إنشائها بين الأوروبيين والأمريكيين، وليس أقل سبب لذلك أن الحرب أخذت ثلاثة ملايين جندي أمريكي إلى أوروبة.

في مطالع القرن العشرين، كان التعريف الجغرافي الدقيق «للغرب» غامضاً، ويشمل أحياناً كل أوروبة، وأحياناً يتحدد بأمريكا الشمالية، والإمبراطورية البريطانية، وفرنسا (عادة). وكان انهيار الغرب لأزوولد إشبنغلر غامضاً دائماً بشأن البلدان التي كانت مدرجة للانهيار، وكان يشير في مواقع إلى «حضارة أوروبية أمريكية» وفي مواقع أخرى إلى «غرب ــ أوروبي»، وهو غرب استبعد ألمانيا بوضوح، ومع ذلك، فإن إشبنغلر في مناقشته للحضارة الغربية شمل بشكل ثابت الإيطاليين والألمان، وهو يرشُّ نصه بحرية بكلمات «نا» و «نحن» ملمحاً بالاستنتاج إلى وجود تراث ثقافي غربي مشترك يشترك فيه الكاتب الألماني وقراؤه الألمان.

وحين قسم الستار الحديدي أوروبة ابتداء من العام 1947، وصل «الغرب» إلى استبعاد أوروبة الشرقية التي حكمها السوفييت، ومن حسن الحظ، ومع حلول العام 1991، ومع تدمير جدار برلين وعودة معظم بلدان أوروبة الشرقية إلى الحكم الذاتي، وإلى أساليب الديمقراطية «الغربية» واقتصادات السوق، كان من الممكن مرة أخرى أن نتحدث عن «الغرب» الذي ضم كل أوروبة، من الناحية السياسية والثقافية كذلك.

هل «الغرب» موجود فعلاً؟

إن فكرة الغرب، التي تدمج فكرة أوروبة وفكرة أمريكا، أعادت صنع خريطة العالم أثناء القرن الأخير، فبتكلفة ضخمة، محيت إلى

حد كبير القومية المدمرة التي كانت تهيج الأوروبيين ضد الأوروبيين، وكذلك فقد تلاشت الإيديولوجيات المناوئة للغرب من النازية والشيوعية، ومن الناحية السياسية، وصل «الغرب» إلى أن يعني مجموعة متنوعة من الأمم الأوروبية الحرة والمستقلة، فهي مازالت تحتفظ ببرلماناتها الخاصة وبهوياتها القومية، ولكنها موحدة من الناحية الاقتصادية، وإلى درجة معينة من الناحية السياسية، وهي في سلام مع بعضها، وفي تحالف واسع مع الولايات المتحدة، وهناك أحياناً، وهو أمر لا مناص منه، توترات خطيرة في بعض هذه العلاقات فيما يتعلق بالسلام، والازدهار، والحرية، فمن المرجح أن هذا هو أفضل حل ممكن كان يمكن أن يبرز من أجل كل الشعوب الأوروبية والأمريكية.

الحوادث السياسية تشكل الهوية، ولكن الحوادث السياسية وحدها لا تستطيع أن تحافظ على الهوية، وفي النهاية، فإن «الغرب» يوجد فقط بوصفه فكرة ذات معنى إذا كان هناك مواقف ومعتقدات مهمة، ويتم التمسك بها تمسكاً عميقاً، وهي تميز «الغرب» عن «البقية»، وإذا كانت تلك المواقف والمعتقدات مشتركة على نحو واسع ضمن الأجزاء المكونة للغرب.

نحن نقول: توجد مواقف ومعتقدات. فالغربيون، وليكونوا أمريكيين، أو كنديين، أو بولنديين، أو فرنسيين، أو أستراليين، أو نيوزيلنديين، أو بريطانيين، أو إيطاليين، أو إيرلانديين، أو إسبان، أو فنلنديين، أو من أي بلد غربي آخر، يفكرون ويتصرفون بطرق متشابهة

تشابهاً واسعاً، وهي تختلف عن الطرق التي يفكر بها، ويتصرف بها معظم اليابانيين، أو الصينيين، أو العرب، أو الأفارقة، أو الهنود، أو الماليزيين، وسوف نشرح الاختلاف بين الغرب، والبقية من الناحية التي تتعلق بالتاريخ، وبالثقافة والمعتقدات في الغرب، والتي تشتق في نهاية المطاف من عنقود من الأفكار المشتركة، والمتداخلة، وهي «عوامل النجاح» الستة الخاصة بنا.

لقد تبنى كتاب آخرون مقولات مختلفة، ولكن ليصلوا إلى استنتاجات متشابهة تشابهاً واسعاً، ولقد حدد أزوولد إشبنغلر حراكية (دينامية) الغرب القلقة التي تهدف إلى الأخلاقية التي تطلبت تحسين العالم والكفاح الشخصي.

الإنسانية الغربية، من دون استثناء، واقعة تحت تأثير وهم بصري ضخم، وكل واحد يطلب شيئاً ما من البقية... في أخلاقيات الغرب كل شيء هو اتجاه، طلب للقوة، وإرادة التأثير في البعيد، وهنا يكون لوثر بشكل كامل على اتجاه واحد مع نيتشه، والبابوات مع الداروينيين، والاشتراكيون مع اليسوعيين... وما أخفقنا إخفاقاً كاملاً في أن نلاحظه هو خصوصية الحراكيات (الديناميات) الأخلاقية (في الغرب)[1].

يتحدث عالم الاجتماع دانييل بل عن «الفردية، والإنجازات، ومساواة الفرص»، ويسلط غونار ميردال الضوء على «الكرامة الجوهرية للمخلوق البشري الفرد». إن جوهر الغرب هو خليط غير

(1) إشبنغلر (1991)، ص 176.

قابل للتعريف من العقلانية، والفاعلية، والثقة، وطلب المعرفة، والمسؤولية الشخصية، وتحسين الذات، وتحسين العالم والرحمة، وفي جذرها كلها يوجد إحساس بالفردية الأخلاقية التي اشترك فيها الأوروبيون ومن انحدر منهم، وهم ممثلون اليوم بشعوب أمريكا، وأوروبة وأسترالآسيا.

ونحن لا نقول: إن هذه الفردية الأخلاقية خير كلها في أصولها، أو في نتائجها، وفي الحقيقة، إنها خطرة إلى حد كبير، وتحتاج باستمرار إلى الترويض بالحس السليم، وبالتواضع الذي يكون في الغالب مفقوداً، وإذا استخدمنا الصفة الرائعة التي وصفها بها إشبنغلر، فالأخلاق الفردية الغربية أخلاق «فاوسْتِيّة». وإنها تسعى إلى القوة، وهي ممزقة تمزيقاً هائلاً للسلطة الراسخة، والثقافات، والتقاليد، وأنظمة الاعتقاد، وطرق الحياة قبل الصناعية، وتمزق كذلك التوازن البيئي كله على ظهر الكوكب الأرضي، فالغربيون لا يعرفون متى يتركون الأمور وحدها، فهم دائماً يذهبون بعيداً جداً، وسريعاً جداً، وإنهم يريدون دائماً أن يفعلوا شيئاً، حين يكون أفضل شيء في الغالب هو ألا يفعلوا شيئاً، وفي رغبتهم للتحسين، فإنهم يتطفلون، وهم يتركون الأشياء في الغالب على شكل أسوأ مما وجدوها عليه، وإنهم غير حساسين لمشاعر الآخرين، وعديمو التصبر، ومستبدون، وهم دائماً متشبثون بآرائهم، وهم في الغالب غير متسامحين، إذ إنهم يقسرون المعارضة بالتهديد، وهم يريدون أن يحولوا عقيدة، وأن يقنعوا، وأن يعملوا تغييرات، فإنهم لا يحبون الاعتراف بأي حد لقواهم الهائلة.

وسواء أكان هذا حسناً أم سيئاً، فالأخلاقية الفردية للغرب، مع ذلك، مشتركة للشعب الغربي، وهي غائبة إلى حد كبير من الشعوب غير الغربية، إلا في البلاد التي كانت قد تأثرت بالغرب، ومثلما يبين عمل عالم الاجتماع غيرت هوفستيد بياناً لا غموض فيه، فإن كل الأمم الغربية فردية إلى درجة عالية، وما من مجتمع غير غربي يقترب منها إلى أي مكان في هذا البعد الفردي[1].

هوية قومية، أو عالمية، أو غربية؟

القومية السامة، في أوروبة، أثر قديم مهجور إلى حد كبير بسبب أهوال «الحربين الأهليتين الأوروبيتين»، وقد تآكلت بفضل نجاح المؤسسات الأوروبية والهوية الأوروبية، على الرغم من أن هذا النجاح لا يعترف به في الغالب إلا بتردد، وإن الأمم الأوروبية، على العموم، لم تبق ميالة إلى أن يغزو بعضها بعضاً، وهي تعتقد أن مصالحها الاقتصادية متكاملة بشكل رئيس. وفي مواجهة مصائب النصف الأول من القرن العشرين، والانقسام والاضطهاد اللذين مثلهما لاحقاً الستار الحديدي، فإن بروز أوروبة الموحدة اقتصادياً إلى حد كبير، مع وجود بعض المؤسسات السياسية المشتركة، مع أن الدول مازالت تحتفظ مع

(1) بناء على طريقة هوفستيد في وضع العلامات، كان متوسط البلدان الغربية 66.7، وكان المتوسط للبلدان غير الغربية 25.7 فقط، وغيرت هوفستيد، نتائج الثقافة: مقارنة القيم، والسلوكات، والمؤسسات، والمنظمات عبر الأمم. مطبوعات سيج، ثاوزند أوكس، كاليفورنيا، 1980، نسخة منقحة، 2001، ولمزيد من التفصيل عن النتائج التي وصل إليها هوفستيد، انظر الفصل 7 الآتي.

obeikandl.com

ذلك بالبرلمانات القومية والهويات المتنوعة القومية ودون القومية، يبدو تقريباً أفضل نتيجة واقعية ممكنة.

وفي الولايات المتحدة، ولأسباب مختلفة إلى حد كبير مع ذلك، فإن القومية والهوية الوطنية قد انحدرت أيضاً، وإن حركة الحقوق المدنية في الخمسينيات من 1950 والستينيات من 1960 أعادت الأمريكيين إلى المواطنة المتساوية الكاملة، ولكنها أيضاً أنشأت وعياً أسود ووعياً «إفريقياً ـ أمريكياً». وحرب فيتنام، التي كانت غير شعبية وغير ناجحة معاً، أضعفت الهوية الوطنية الأمريكية، حين قامت أعداد كبيرة من الشباب الأمريكي بتجنب السحب في القرعة العسكرية أو بالتهرب منه، بل إن بعضهم تخلى عن الجنسية الأمريكية، وقد استقرت أعداد ضخمة من المكسيكيين أو من المهاجرين الهسبان الآخرين في الولايات المتحدة في العقود الزمنية الثلاثة الماضية، وعلى خلاف المهاجرين السابقين، فقد احتفظ المهاجرون الجدد بعلاقات وثيقة مع قاعدتهم الوطنية، وبقوا في الغالب يتحدثون باللغة الإسبانية وبامتلاك جنسية مزدوجة أو مواطنة مزدوجة، ويعتقد كثيرون من المراقبين أن أمريكا تتطور نحو قيام مجتمع ثنائي الثقافة، وثنائي اللغة.

وكما لوحظ من قبل، فإن تقدم الفردية صار مرتبطاً مع التحول نحو الهويات الداخلية التي تحدد ذاتياً، وهو ما نتج عنه تحول من الارتباط مع الأمة إلى الارتباط مع مجموعات أصغر أكثر تجانساً، وإن التدهور في الهوية المجتمعية، وفي الثقة بالزعماء السياسيين، قد أضعفت أيضاً الولاء القومي. وأخيراً، ومثلما لاحظ صامويل هنتنغتون

فإن «عناصر من نخب أمريكا الفكرية، والسياسية، والأعمال قد أنزلت التزاماتها لأمتها على نحو متزايد، وأعطت الامتياز لمطالب عابرة للقومية ودون قومية في ولاءاتها».

أدت أحداث «9/11» إلى إحياء هائل للقومية الأمريكية، ولكن يبدو أن هذا كان ارتفاعاً حاداً استثنائياً ومؤقتاً في اتجاه طويل، منحدر، وإن توهين الثقة القومية الذي نتج عن الحرب في العراق والتمرد المستمر هناك، وعن الإخفاق الاتحادي في مساعدة الناس (ومعظمهم سود فقراء) الذين تُركوا مهملين في نيوأورلينز بعد إعصار كاترينا في العام 2005، قد أضعفت ثانية الإحساس بأن أمريكا أمة موحدة، واثقة.

الهوية العالمية (الكوزموبوليتانية) «الشاملة» هي على الأقل بديل نظري للقومية، وفي أثناء الثمانينيات من 1980 ومطالع التسعينيات من 1990 صار من الموضة أن يُطرح للنقاش أن «الحداثة» و«التغريب» قد صارا منتشرين ومؤثرين، حتى صرنا كلنا نعيش في قرية كوكبية واسعة واحدة، على الرغم من أن القول: إننا نعيش في «سوق للتسوق الكوكبي» ربما كان وصفاً أقل خرقاً، ولدى الفحص القريب، مع ذلك، فإن العالمية (الكوزموبوليتانية) إما أنها ضحلة للغاية، أو أنها وهم كامل.

وكما وثّق العديد من العلماء، وكما بيّنت الأحداث الجيوسياسية عملياً، فإن البشر لا يفكرون عادة «تفكيراً كوكبياً» وإن الثقافة المحلية، والقومية، والإقليمية، والتاريخ، والدين، والسياسات، ليست جاهزة كي

تكنس إلى سلة النفايات التي سميت «التاريخ»، وإن أولئك الذين تخيلوا غير ذلك يعانون الآن صدمات كريهة، إذ إن علماء الاجتماع وعلماء النفس الذين درسوا الطريقة التي تفكر فيها الأمم المختلفة قد وجدوا مرة تلو الأخرى، النمط نفسه طبعة مشتركة غربية، وحفنة من أنماط أخرى أقل تجانساً من أنماط الفكر الإقليمية، وهي مصنفة عادة بدرجات متفاوتة من الاقتناع والتلاعب إلى أنواع مثل الصيني، والياباني، والهندوسي، والبوذي، والإسلامي، والأمريكي اللاتيني، والإفريقي، والأرثوذكسي/الروسي، وأطروحة «صراع الحضارات»، التي طرحها صامويل هنتنغتون في العام 1990[1]، تبدو بشكل متزايد أصيلة مبدعة، ولكنها متكلفة، وتبالغ في درجة التشابه داخل كل «حضارة» وفي ضرورة قيام الحضارات بالتصارع[2]، ولكن الجدال الناتج سلط الضوء على الأقل على الاختلافات الثقافية، وعلى العواقب المؤسفة في الغالب للهويات المتنوعة القومية، والإقليمية، والدينية، فيما وراء الغرب.

(1) في مقالة في مجلة القضايا الخارجية (فورين أفيرز)، في صيف العام1993 ، بعنوان «صراع الحضارات؟» ، ثم وسعها لاحقاً إلى كتاب صامويل هنتنغتون (1996) صراع الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي، المطبعة الحرة، نيويورك.

(2) ويهمل هنتنغتون أيضاً المدى الذي تصل فيه الأمم والجماعات داخل حضارات «متشابهة» إلى التصادم مع نفسها، وكما قال المؤرخ نيل فيرغسون عن الشرق الأوسط، إنه يبين عملياً «لا صراع حضارات بقدر ما هو حضارة صراعات». نيل فيرغسون (2004) العملاق: صعود الحضارة الأمريكية وسقوطها، بينغوين، لندن.

إذا كانت القومية والعالمية (الكوزموبوليتانية) حلين فقيرين و/أو ضعيفين بالنسبة إلى الحاجة إلى أكثر من تعريف خاص للهوية، فربما كان البديل الوحيد، وبالتأكيد أكثر الحلول منطقاً، هو الهوية الغربية، وذلك على الرغم من أن الهوية الغربية تتطلب من الأمريكيين، ومن الأوروبيين أن يخففوا من هوياتهم القومية والإقليمية المنفصلة، وإن الهوية الغربية تمتلك خمس ميزات مقنعة لا تقاوم.

الأولى: هي أن الهوية الغربية قائمة على أساس من التاريخ والجغرافية المشتركين، وعلى مجموعة من الهويات القومية التي تمتلك العديد من التشابهات.

الثانية: هي أنها تمشي مع تدفق الحوادث التاريخية، والاقتصادية والسياسية في القرن العشرين وفي الزمن الحاضر منها، توحيد أوروبة، الأهمية المهيمنة للتجارة داخل الكتلة الغربية، وتشابك المنظمات والأحلاف الغربية السياسية، والاقتصادية، والعسكرية.

الثالثة: هي أن الهوية الغربية تعكس الحقيقة الواقعة، وهي أن هناك عقلية مشتركة يشترك فيها كل الغربيين، ولا يشترك فيها غير الغربيين.

الرابعة: هي أن الهوية الغربية واسعة سعة كافية تجعلها تسمح بالاحتفاء بالاختلافات العرقية، والمحلية، والقومية، وبمختلف الهويات دون القومية والعابرة للقومية من الهويات الأوروبية والأمريكية، مع كونها في الوقت نفسه أيضاً قوية قوة كافية لتعني شيئاً، والهوية الأوروبية ـ عالمية عرقياً ـ فهي لا تقلل من الهوية الهسبانية، أو

السوداء، أو اليهودية، أو الأيرلندية، أو الأنجلو سكسونية، أو من أي هوية أخرى شمال أمريكية أو أوروبية، وهي بالتأكيد لا تحرض جماعة عرقية أو قومية ضد أخرى، أو الأمريكيين ضد الأوروبيين، وإنها تسمح لكل هذه الجماعات ولجماعات كثيرة أخرى ـ ومن ضمنها جماعة دعاة تعددية الثقافات المصممين عليها ـ لتشعر شعوراً عميقاً نحو هوياتها المتنوعة من دون أن يكون عليها أن تنكر الحاجة إلى روابط مجتمع أوسع، أو إلى تشويه سمعة المصادر الأخرى للهوية أو التقليل من شأنها.

الخامسة الأخيرة: هي أن الهوية الغربية تمتلك محتوى أخلاقياً واجتماعياً مادياً أساسياً، يؤكد حقيقة مجتمع مشترك له جذور جغرافية، مع تراث ثقافي ثري متركز على المثل العليا للقيمة الإنسانية، والمسؤولية والإمكانية، وإن الهوية الغربية تسمح لكل واحد من أي انتماء سياسي، أو ديني، أو أسلوب حياة، أن يشعر أنه جزء من مجتمع مستغرق للجميع في داخله ومتسامح شامل يحتضن التنوع والفردية، ومع ذلك فهي هوية أكبر من أي فرد، وهي لذلك تساعد على أن تمنح معنى لحياة الفرد من الجنسين.

خاتمة

الهوية مهمة، وفي القرن الماضي، أوقعت القومية ضرراً يفوق الحصر في أوروبة، أدى إلى حروب رهيبة وأنظمة حكم بربرية، وفي مقابل القومية الدموية، تستقر الحضارة الغربية على «أفكار» متشابهة

جداً عن أوروبة وأمريكا، بوصفهما مجتمعين لأفراد أحرار، ورحماء، ومسؤولين، وإذا كان لهذه القيم أن تمضي قدماً، وإذا كان للمعنى الإيجابي للمجتمعات المحبة للسلام أن يحافظ عليه، فإن على مواطني الغرب أن يجدوا مكاناً في قلوبهم، وفي عقولهم للولاء للغرب، للمزيج والتحالف من أمريكا وأوروبة، ومن المستوطنات السابقة الأخرى التي استوطنها الأوروبيون.

والبديل للهوية الغربية هو إما شكل ما من أشكال الهوية التي تقسم الغرب ، وهذه الهوية، بناء على ملف التاريخ، تقود على الأرجح إلى عالم كريه وخطر، أو هي هوية ليست هوية جماعية مشتركة قطعياً، فإن كانت هي هذه الأخيرة، فسوف نصل إلى حالة من الأمور لم تكن قد وجدت في الغرب لأكثر من ألفي عام، وستكون العواقب على الأرجح، بكلمات توماس هوبز اللافتة للانتباه على نحو يبعث على الكآبة، «حرب الجميع ضد الجميع... وحياة الإنسان وحيداً، وفقيراً، وكريهاً، ومتوحشاً وحياة قصيرة»[1].

لم كانت الهوية الغربية قوية ومختلفة إلى هذا الحد عن هوية الحضارات الأخرى؟ الجواب يكمن في التاريخ الفريد للغرب، وفي الخبرة المشتركة لست فِكَر غربية قوية ومتميزة على نحو ضخم جداً، والفكرة الأولى التي ندرسها هي المسيحية، التي كانت حجر الأساس الراسخ للأفكار الأخرى، ويتبين أن طبيعة المسيحية وأثرها ــ على الغرب، وعلى العالم عموماً ــ قد أسيء فهمهما على نحو عميق.

(1) توماس هوبز (1651) ليفاياثان.